الشعر العربي في إمارة زاريا- نيجيريا - دراسة بيانية لأسلوب التشبيه في بعض أشعار إبراهيم أحمد مقري زاريا

د. علي أبوبكر أبه

ملخص المقالة:

عني العرب بالشعر والكلمة البالغة منذ لانت لغتهم في أفواههم، وتصرفت فيها ألسنتهم، وصاغوا بها انتفاضات نفوسهم، وعبروا بها عن مواجيدهم وأشواقهم، منذ صارت اللغة أداة للتعبير عن الضمائر والقلوب، وهو مرآة صافية تعكس نفسية الشاعر وتصور أفكاره ومثله، وأحاسيسه ومفاهيمه للحياة. وإمارة زاريا من أهم الإمرات الإسلامية في نيجيريا الشمالية، لها صلة وثيقة بالثقافة الإسلامية الأصيلة والعربية العريقة، فقد أرست أقدامها في المنطقة منذ وقت مبكر من دخول الإسلام إليها، وتمكنت وازدهرت أيام الدولة الفودوية، فنبغ فيها علماء وأدباء وشعراء صاغوا من الشعر العربي ما هو جدير بالاهتمام والدراسة. فهذه المقالة تحاول رصد مساهمات الشاعر إبراهيم أحمد مقري زاريا في تطوير أسلوب التشبيه في الشعر العربي النيجيري، مركزة إهتمامها على دراسة نماذج مختارة من أشعار هذا الشاعر. فالمقالة تتناول بعد المقدمة والتعريف بالشاعر دراسة وتحليل صور التشبيه: المفرد والمركب والضمني.

مقدمة

التعريف بالشاعر

هو الشيخ إبراهيم بن أحمد مقري بن سعيد بن خالد بن أحمد بن حمزة، من سلالة عربية مغربية، ولد في مدينة زاريا الواقعة في ولاية كادونا (Kaduna) في نيجيريا، يوم الأربعاء غرة شوال سنة ١٣٩٦ه، الموافق ١٥ من شهر سبتمبر لعام ١٩٧٦م. ونشأ في بيئة علمية، ذات ثقافة إسلامية وعربية تحت احتضان والدته الأستاذة سودة، ووالده الأستاذ مقري، وعمه الدكتور آدم، الذين قاموا بتربيته تربية حسنة، علي أخلاق إسلامية وعلى الجد والاجتهاد فيما ينفع ويفيد في صالح الدين والدنيا، بعيدا كل البعد عن حياة اللهو واللعب مع الأولاد، ولم ينشغل بشيء غير طلب العلم منذ أن دب وقام إلى أن شب وشاب.

تعلم قراءة القرآن الكريم عند والدته وهو طفل صغير، ثم واصل تعلم مبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية على أيدي والده الأستاذ أحمد مقري، وعمه الدكتور آدم سعيد خالد، ثم درس التعليم الأساسي بمدرسة مودوجي (Modoji) الابتدائية، ومدرسة رافن داطي (Rafin Dadi) بمدينة كظنا (Katsina)، ودرس الإعدادية بمدرسة (Kofena College) بمدينة زاريا، وفي الوقت نفسه أدخله والده في مدرسة الفيضة الإسلامية (مسائيا) الواقعة بزاوية الشيخ يهوذا زاريا لحفظ القرآن الكريم. وبعد أن كمل الإعدادية حصل على منحة أزهرية فسافر إلى مصر حيث أكمل الدراسة الثانوية الأزهرية ثم إلتحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فحصل على الإجازة (الليسانس) في الصحافة والإعلام سنة ١٩٩٩م، وبعد العودة إلى نيجيريا إلتحق بجامعة أحمد بلو زاريا حيث درس الدراسات العليا الماجستير سنة ٢٠٠٥م، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة بايرو كنو نيجيريا سنة ٢٠٠٩م.

وأما من ناحية الإفادة فقد أثمرت كثرة قراءاته واطلاعاته على كتب الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي وبعض دواوين الشعراء كابن الفارض، والعقاد وغيرهما، وآتت أكلها في تأليفاته التي قام بها في هذه الميادين؛ ومن بينها: وحدة الوجود بين الفلسفة والتصوف، ومصدر التصوف الإسلامي، وشاعر رسول الله (، وتحفة شهر الربيع، وشفاء الفؤاد بمدح خير العباد+، وكثير غيرها.

تمهيد

التشبيه ميدان واسع من ميادين الأساليب البيانية التي تتبارى فيه قرائح الأدباء، وهو مع الاستعارة من أكثر أساليب البيان دلالة على عقل الأديب وقدرته على

الخلق والإبداع، ويدل على خصب الخيال وسموه وسعته وعمقه عند الشاعر، بل إن التشبيه هو"أصل الخيال الشعري، وعماد التصوير البياني".١ والخيال يخلق مقدرة على ابتكار الأشياء وتشخيصها، و يربط بين عالم الشعور وعالم الإدراك والفهم، وهو أداة حية تزاول عملها في ذاكرة الشاعر التي تحتفظ بكل ما يراه ويسمعه ويحسه وينفعل به طول حياته، وبه يستطيع أي شاعر موهوب أن ينقل الأشياء من واقعها الحسي إلى واقع جديد، ويؤلف بين الأشياء المتباعدة، ويبعث الحياة في الشيء الجامد، ويوحي بالإدراك فيما لا يعقل، من أجل ذلك كله تجد ذوي المواهب العالية يتنافسون في طرق تناوله؛ والإتيان فيه بكل غريب وبديع طريف. وهذا ما ينكشف جليا في صنيع الخيال بالتشبيه في قول بشار بن برد؛ وقد وفد على يعقوب بن داود وزير الخليفة المهدي فحرمه جائزته فقال:

يعقوب قد ورد العفاة عشية
متعرضين لسيبك المنتاب
فسقيْتهم وحسبْتَني كمُونة
نبتَتْ لزارعها بغَيْر شراب
مهْ لا أبالك إنني ريحانة
فاشمم بأنفك واسقها بذناب

تجد أن الشاعر قد صور نفسه في رأي يعقوب بكمُّونة، والكمون نبت لا يسقى بل يوعد بالسقي- هكذا تقول الروايات- ثم يصور بشار نفسه ليعقوب بأنه ريحانة، والريحان يحتاج إلى السقي والعناية لكي ينمو ويفوح شذاه، ويمضي بشار في تجسيم هذا المعنى بخياله الفذ فيقول: اشمُمْ بأنفك رائحة الريحان الذكية، ويقول أيضا: اسق هذا الريحان بالماء الغزير، كل ذلك ليجعل من الصورة المتخيلة شيئا واقعيا ينبغي تصديقه.٢ ويجسد المعنوي في ثوب المحسوس؛ حتى تكون الصورة واضحة ومؤثرة في نفس المتلقي.

تعريف التشبيه :

التشبيه لغة: هو التمثيل، وفي لسان العرب: "الشِّبْه والشَّبَه والشَّبيه: المثْل، والجمع أشباه. وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله. وفي المثل: مَنْ أشبه أباه فما ظلم. ... وشبَّهه إياه وشبَّهه به: مثَّله."٣ واصطلاحا: فقد عرفه قديما قدامة بن جعفر بقوله: "التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعُمُّهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل منهما عن صاحبه بصفتها".٤ وهو عند القزويني: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى".٥ وعند الهاشمي:"عقد مماثلة بين أمرين، أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة، أو أكثر، بأداة: لغرض يقصده المتكلم".٦

ولنبدأ بدراسة نماذج لصور التشبيه المفرد في مطلع قصيدة نونية للشاعر إبراهيم أحمد مقري في مدح الشيخ الشريف إبراهيم صالح الحسيني حيث أبدع الشاعر إبداعا بارعا عند تلوين كلامه بالتشبيه المفرد الذي يغذيه تغذية قوية تخرجه من بداهة وسوقية مبتذلة، فقد وصف ما آلت عليه الطريقة التجانية وهي في مبادئ أوجها على عزة وكرامة، وشرف وأبهة يهابها روادها فضلا عن مغتربيها، ولكنها آضت ذلا بعد عزة؛ وأثرا بعد عين، وأوقع ذلك كله في صورة تخيلها وأحسن تخيلها كأنها الصرح السليماني، ولتسلم دعواه عرف الصرح ب"أل" لأن إيقاعه مضافا لا يؤذن بالتحكم الشديد والسيطرة الكاملة به، فكأنها جزء لا يتجزأ منه، ومجد هذه الطريقة الضائع قد شكله الشاعر في صور عديدة في الأبيات التالية:

هل صدَّ يا قيْس ليلى العامرية؟لا
لكنما وضع هذا الدين أشجاني
إن أبك أبك على صرح منضدة
من القوارير كالصرح السليْماني
عادت قلى الظبي بل ملهى الأرانب بل
مأوى العقارب بل بلاط شيطان
وجنةٌ تَغْتذي شتى الفواكه من
منِ أنهارها، وعبير الشيْح والبان
في كل أرجائها واليوم عاد كأَنْ
لم تغن بالأمس،هذي كل أحزاني

أول ما يطالع الشاعر القارئ به في البيت الأول من خياله الخصب هو عند ما أراد تصوير حال الطريقة التجانية وما آلت إليه؛ وما يخامره من الحزن والألم لوضعها الذي صارت إليه؛ جرد من نفسه "قيْسًا" الملقب بمجنون ليلى العامرية التي أحبها حبا شديدًا، إلا أنه لم يتمكن من الزواج منها فبقي في عذاب حبها وعشقها وهيامها مجنونا طول حياته، ثم ناداه سائلا يا قيْسُ ما هذا الحزن المؤلم الذي أنت فيه؛ هل هو من صدود ليلى عنك؟ فأجاب عن السؤال على وجه السرعة بالنفي: "لا"؛ ليس الحزن على هذا! بل إنه من أجل تغيير وضع هذا الدين هو ما جلب عليَّ الحزن والأسى!

ثم استمر الشاعر بأسلوب التشبيه يصف صورة الدين وحالته التي كان قائما عليها من قبل في البيت الثاني بصورة بناء أو قصر عال وشامخ؛ محكم البناء؛ مرصف بالقوارير كالصرح السليماني الفخم الملمس من الزجاج الصافي، وصورة المشبه به "الصرح السليماني" توحي بالقوة والعظمة والهيبة والسيادة

والفخامة، وكل هذه المعاني مقصودة عند الشاعر؛ لأنه يبدو في التصوير ممتلئا بها.

ثم انظر بعد ذلك كيف أتبع الشاعر هذه الصورة بصور أخرى من نوع التشبيه البليغ؛ صور دالة على تسلسل السلم الهبوطي من أعلى إلى أدنى قائلا:

عادتْ قلى الظبْيِ بل ملهى الأرانب بل

مأوى العقارب بل بلاط شيطان٧

وهذا البيت كله تشبيهات بليغة حيث حذف منها الأداة ووجه الشبه في جميعها، أما المشبه فهو مقدر ومنوي فيها؛ أي عاد الصرح المنضد كقلى الظبي؛ بل كملهى الأرانب؛ بل كمأوى العقارب؛ بل كبلاط شيطان. وصورة "قلى الظبي" إن دلت على شيء فإنما تدل على تحول الطريقة إلى آلة أو وسيلة للصيد أو التكسب باسم الدين، و"ملهى الأرانب" أي ملعبها؛ ولفظ الملهى توحي بالنسيان والغفلة عما هو أهم وأحق ألا ينسى، وصورة "ملهى الأرانب" تدل على الضعف والجبن وعلى الكثرة الهائلة بلا قوة، لأن الأرنب حيوان كثير التوالد كما يضرب به المثل في الجبن.٨ ثم عاد الصرح "مأوى العقارب" هذه الصورة توحي بالأخطار المحيطة بهذا المأوى من السموم المستفادة من لفظ "العقارب"، ثم عاد الصرح "بلاط شيطان" أي قصره ومجلسه؛ ولفظ "شيطان" تبين ذروة شناعة صورة ما وصلتْ إليه، لما توحي به كلمة "شيطان" من المكر والخداع والغرور والتضليل والتمويه، كما أن التنكير فيه يدل على أي شيطان سواء كان من الجن أم من الإنس. وهذه الصورة هي آخر الحالات الشنيعة التي وصلتْ إليه في تدرجها التسفلي أو الهبوطي. ثم يتقدم الشاعر بخياله الخالق فيشبه حال الطريقة في نِعَمِها وتنَعُّم أهلها فيها بصورة "الجنة" وما فيها من النعم قائلا:

وجنة تغْتدِي شتى الفواكه منْ

أنهارها وعبير الشَّيْحِ والبان

في كل أرجائها واليوم عاد كأن

لم تَغْنَ بالأمْس هذي كل أحزاني

والشاعر هنا يشبه حال الطريقة التجانية وآدابها وتعاليمها القائمة على تطهير النفوس الدنية من الذنوب؛ واستنهاض همم قلوب السالكين بذكر الله تعالى والتقرب إليه بنوافل الخير إلى أن تصفو القلوب وتستقر وتثبت على عبادة الله وذكره في كل وقت وحين؛ وتصبح لا تتلذذ بشيء كتلذذها بعبادة الله وحده والتقرب إليه بحال "جَنَّة" أي حديقة فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين من شتى الفواكه الشهية؛ والرياحين العطرة المنتشرة في جميع أرجائها، هذه هي صورتها بالأمس؛ صورة عامرة قائمة على عروشها، أما اليوم فقد تحولت وعادت كأن لم تغن بالأمس، وذلك هو كل ما يجلب على الشاعر الأحزان. فالتشبيه تشبيه مركب الطرفين أي أن المشبه والمشبه به مركبان، أما وجه الشبه فهو مفرد وهو "التلذذ في كل منهما"، وهو في المشبه تلذذ روحي ناشئ من العبادة، أما في المشبه به فهو تلذذ مادي ناشئ من المأكول والمشروب والمشموم والمناكح والمركوبات إلى آخرها. ثم انظر كيف بين الشاعر صورة التابعين للشيخ في طريقته، وهي في صورة الصرح المنضد كالصرح السليماني؛ وفي صورة جنة يحيط بها جميع أنواع الفواكه الشهية؛ والأشربة اللذيذة؛ والرياحين العطرة:

أي فيضة الشيخ مَنْ إذْ يَسْر تابعه

أولى محطاته أنحاء كيوان

نما إليها رجال لو رأيتهم

خِلْتَ الملائك في بيد وقمْصان

كانوا يحلون فيها من أساور منْ

ذهب ومنْ لؤلؤ صاف ومرجان

هدى الشريعة إن حلتْ وإن رحلتْ

هم ظلها، دالهم لله نوران

كانتْ وكانوا فلا تسأل وربك ما

صارتْ وصاروا خبايا ذات أشجان

فتابع الشيخ الذي يسري معه في سُراه يرتقي مقامات ومناصب عالية، أولاها كأنحاء كيوان في الشرف والارتفاع؛ والكيوان هو زحل أعلى الكواكب السيارة. ثم وصف الشاعر هؤلاء الرجال الذين تقدموا إلى الشيخ وإلى فيضته إذا رأيتهم خلتَهم الملائكة في بيد وقمصان؛ فالمشبه به "الملائك" وقع مفعولاً ثانيًا للفعل "خِلْتُ" الذي ينبئ بالتشبيه ويرشد إليه، ولكنه ليس بأداة تشبيه؛ بل الأداة مقدرة، والمشبه هو ضمير الرجال أي خلتهم كالملائكة، ثم انظر إلى أوصاف زينتهم التي تدل على الرفاهية والترف في قوله: "كانوا يحلون فيها من أساور من ذهب...".

وفي تشبيه هؤلاء الرجال بالظل لهدى الشريعة الإسلامية أينما وجدوا فيها؛ ما يدل على أنهم كانوا لها كأشجار وارفة الظلال؛ يأوي إليها الناس فيأتمنون بها من حر الشمس؛ بمعنى أن الجاهل الضال يهتدي بهم إلى هدى الشريعة كما يأمن المشمس من شدة حرارة الشمس إذا أوى إلى شجرة ظليلة وارفة، وهي صورة رائعة جدا كما ترى.

ثم انظر إلى صورة ما آل إليه أصحاب هذه الطريقة: تلك هي صورة الفيضة وصورة أهلها التي كانت وكانوا عليها؛ رفعة الشأن والمقام كأنحاء كيوان؛

وجمال الصورة وطهارة الضمائر كالملائكة المقربين؛ وهم في عموم النفع في الشريعة الإسلامية كالظل الوارف. ثم بعد ذلك لا تسأل عن أيِّ شيء تحولت الفيضة وتحول أصحابها إليه! إنهم صاروا مثل خبايا ذات أشجان، وأما الفيضة في حد ذاتها فهي:

الفيضة الروح والريحان يسلبها ال
أوغاد من أيما روح وريحان
قد مَوَّهُوا في الورى باسم الحقيقة ما
يمجه كل ذي عقل وإيمان
ويستسيغون أصناف الحرام بدعوى
"الفضل" طورا وطورا باسم "عرفان"
إن الحقيقة مهما لا تحيط بها
شريعة فكتاب دون عنوان
أو عملة ذات وجه واحد فسلوا
في الصيرفية: هل تحظى برضوان

مازالت بخيراتها وبركاتها وعموم نفعها بحيث لا غناء عنها كالروح والريحان التي بها توجد الحياة في الأجسام الحية، ولكن الأوغاد الحمقى المبطلين؛ ضعفاء العقل من الناس كادوا يسلبونها من هذه الروح والريحان؛ فموَّهوا وزوَّرُوا ولبَّسُوا في تعاليمها الحسنة؛ بما يكرهه كل ذي عقل سليم وإيمان صحيح، وبما يرتكبونه من أصناف الحرام، كل ذلك باسم الحقيقة حينا؛ أو باسم الفضل والعرفان حينا آخر. وأولوا اليقين بزور وشيطنة مع أن الحقيقة التي لا تساندها أحكام الشريعة المحمدية فهي مثل صورة كتاب بدون عنوان له؛ ولا أبواب ولا فصول ولا مباحث في عدم القبول عند أهله، أو كحال عملة ذات وجه واحد في عدم القبول عند الصيارفة، وفي نهاية المطاف يقول الشاعر:

يا سيدي الشيخ يا نجل العواتك يا
هذا الشريف الحسيني العلي الحاني
لم يبق في الناس من يرجى سواك فقم
وحرر الدين من أدران شيطان

بعد هذه الصور التشبيهية المجسمة لحال الطريقة التجانية وحال أتباعها؛ يأتي الشاعر إلى توجيه نداءات مكررة إلى الشيخ الممدوح الذي يرى أنه اليوم لم يبق في الناس؛ من شيوخ وعلماء من يقدر على حل مشكلات هذه الطريقة؛ ومعالجة أمراضها وتقديم الشفاء لأمراض أتباعها سواه. فيناديه بألقاب كلها تدل على شرف الأصل وعلو المقام، والأهلية والاستحقاق بحمل هذا المنصب: يا سيدي، يا نجل العواتك، يا هذا الشريف العلي الحاني؛ قُمْ وحرر الدين من أدران شيطان. هذه الصور البيانية قد جلت بكل وضوح معاناة الطريقة التجانية؛ وأحوال أتباعها وهم يتدحرجون بها في مشاهد مجسمة، في هذه المراحل الهابطة المتدرجة من حال هي في أمسها خير من حالها في يومها الذي تصبح فيه حتى صارت إلى أسوأ الحالات.

وفي إعجاب الشاعر بجمال ممدوحه الباهت يقول مصورا له:٩

فيوم ظهرت على الناس يا ي
وسفيَّ الهوى حار فيك الفكر
أطيف سرى أم هلال بدا أم
ملاك من العالمين الأخر
كأنك خام الجمال الذي من
ه في كل شيء جميل أثر

إنه يصور الممدوح في جماله يوم أن ظهر على الناس؛ فيشبه حاله يومئذ بحال يوسف عليه السلام- الذي رزقه الله نصف الجمال- حين ظهر أمام جمهور النساء فحارت عقولهن فيه إجلالا وإعجابا؛ "فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم".١٠

وهذه الحالة شبيهة بحال الشيخ الممدوح يوم ظهوره على أعين الناس؛ فحارت فيه عقولهم وأفكارهم فذهبوا حيارى؛ فمن قائل يقول: أهذا "طيف سرى" أي خيال طائف في النوم؛ أم "هلال بدا" أي غرة القمر؛ أم ملاك من العالمين الأخر" أي من جنس الملائكة، وذلك لما تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك. فجميع هذه الصور التشبيهية صور ارتقائية من حُسْنٍ إلى حَسَن إلى أحْسن ابتداء من طيف الخيال؛ مرورا بغرة القمر؛ ووصولا إلى صورة ملاك من العالمين الأخر، مما يدل على الإعجاب التصاعدي منهم.

تدبر- يا قارئ- الصور البيانية في هذه الأبيات؛ حيث يحاول الطبيب مواساة الشاعر بالعلاج، فيشبه وعد الطبيب بشفائه من داء الحب بمواعيد عرقوب في خلف الوعد وعدم الإنجاز، وبالبرق الخلب في الخداع. ثم جسم الشاعر أحبته في صورة الترياق والداء والدواء لما هو فيه، فهم المرض والممرضون له في الوقت نفسه؛ يقول:١١

ألا يا طبيب الإنس دعك عن الرقى
فلم يدر داء الحب إلا المجرب
تفاقمت الأدوا ووعدك بالشفا
مواعيد عرقوب وبرقك خلب
أحبتي الترياق والداء والدوا
أيجدي من الآسي الرقى والتطبُّبُ

إنه في هذه الأبيات يبين فشل محاولة الأطباء بمواساته بالأدوية ليشفى من داء الحب الذي يعاني منه، فينادي الطبيب منبِّهًا له بأنه لم يدر داء الحب قط إلا من جربه وذاق طعمه، فلذلك عبثا يحاول الطبيب مواساته بالرقى؛ وهو يعده بالشفاء العاجل في حين أن الأدواء تتفاقم

وتتأزم فيه، فيشبه وعده له بالشفاء بهذا المثل الذي يضرب في خلف الوعد "مواعيد عرقوب"١٢ أي إنما وعده كمواعيد عرقوب في خلف الوعد وعدم إنجازه، وبرقه كالبرق الخلب في الخداع،١٣ ثم يدل الطبيب على موطن الداء والدواء فيه، وهما ممثلان في أحبته الذين هم الترياق وهم الداء والدواء لما يعانيه، فلا حاجة إلى الرقى والتطبب.

نماذج لصور التشبيه المركب

وإذا كانت الشيوخ الأوائل في الطريقة قد أسسوها على البر والتقوى وشيدوا بنيانها على الاستغفار وعلى ذكر الله والصلاة على النبي (، وغرسوا في أتباعها مكارم الأخلاق ومحامد الطباع، وحضوهم على الإخاء والمحبة والمواساة كما في قوله:١٤

هي روضة إن لم تردها ذاكرا
فمصليا لا شك أو مستغفرا
هي روضة الشيخ التجاني خميلها
في غير بحر للشريعة ما جرى
ذكر مذاكرة وأخلاق وإن
تشأ المحبةُ ما أجل وأكبرا

إذا كانت هذه هي حال الطريقة وحال السلف الصالح من شيوخها الأوائل؛ فهل في خلفهم من الجيل الجديد من اقتفوا أثر هؤلاء الأوائل وساروا على نهجهم فيها؟ هذا ما صوره الشاعر بعاطفة وقادة ملتهبة في قوله:١٥

واعجب بهم خلفا كأن كبارهم
بسوى الكبائر شأنها لن يكبرا
كالقرد تبدي كلما صعدت إلى ال
علياء سوءتها على من أبصرا

شبه الشاعر في البيت الأخير حال الخلف في الطريقة التجانية الذين يبدون الخلل والمساوئ، سواء بوعي أو بغير وعي منهم، بحال القرود التي تصعد فوق الأشجار كلما ازدادت صعودا إلى أعلى تزداد كشفا لسوءاتها لمن ينظر إليها، ووجه الشبه: "الهيئة الحاصلة من ترتب زيادة إبداء الخلل والفساد كلما ازداد محاولة على التقدم والارتقاء".

انظر كيف صور الشاعر إبراهيم مقري ممدوحه الشيخ الشريف إبراهيم صالح الحسيني حين ظهرت فرقة تكفر المسلمين في هذه البلاد في قوله:١٦

لما غدا التكفير "موديلا" وبا
رى الأقويا الواهي به واستنصرا
قام الشريف وهدد العقلاء من
أضرار سيف العاجزين وأنذرا
فإذا الحقود الغمر أقبل راكضا
فأزًا ينازل في العراك غضنفرا

يقول الشاعر لما أصبح تكفير المسلمين "موديلا" أي طرازا أو قدوة تحتذى بها في أفواه تلك الفرقة التكفيرية، حيث جعل الضعيف الواهي منهم يعارض بالتكفير من هو أقوى منه في التقوى والتمسك بدين الله، قد انبرى الشيخ الشريف بالتفنيد والرد عليهم بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف، منذرا العقلاء من أضرار بأس الفرقة على وحدة كيان الأمة. ثم شبه الشاعر الرجل الحاسد الحقود لممدوحه حين أقبل في سرعة كأنه جواد يريد الهجوم على الممدوح حقدًا وحسدًا بفأرة تشبيها مطوي الوجه والأداة ليدل على تلاحم الطرفين واتحادهما في جميع الصفات، وهذا تشبيه صريح، ثم أردفه بتشبيه تمثيلي ليبين حال الفأرة في حربها وهجومها على الممدوح بحال مهاجمتها ومنازلتها الأسد في المعركة. ووجه الشبه هو "صورة شيء صغير ضعيف يبارز في ساحة الحرب شيئا أعظم وأقوى منه"، فهذه الصورة صورة خيالية طريفة مما يسميه البلاغيون "تشبيها خياليًّا"، حيث تريك فأزًا ينازل في العراك غضنفرًا، وذلك مما لم يتهيأ لك أن تراه في المألوف، وإنما تراه في بنات الشعر وولائد الخيال.

نماذج لصور التشبيه الضمني

ومن صور هذا النوع من التشبيه في شعر الشاعر إبراهيم مقري قوله وهو يصور حاله مع محبوبه حين عز اللقاء بينهما فلجأ إلى ترداد سلاماته وتحياته إلي المحبوب قائلاً:١٧

سلام من المكلوم عشقا إذا اعتصى ال
لقاء ومن لم يلف ماء تيمما

فالشاعر يتحدث عن نفسه وهو مكلوم الصدر من العشق؛ محترق الحشا بالمحبة؛ وهو يرجو ويأمل في لقاء محبوبه ومقابلته، غير أنه إذ لم يتمكن من تحقيق هذا الأمل والرجاء، قد لجأ إلى إهداء سلاماته وتحياته إلى المحبوب لتكون له وصلا به، وذلك ليس بشيء عجيب من أمره؛ فإن المصلي إذا طلب الماء الطهور ليتوضأ فلم يجد، قد يلجأ إلى التيمم بالصعيد الطاهر بديلا عنه. وفي ذلك تلميح بالتشبيه في غير صراحة وكأنه يشبه نفسه حين فقد لقاء محبوبه ولجأ إلى إهداء تحياته إليه بالمصلي الذي فقد الماء الطهور ولجأ إلى التيمم بالصعيد الطاهر. ولكنه لم يضع ذلك صراحة؛ بل أتى بجملة مستقلة وضمنها هذا المعنى في صورة برهان.

وعلى الرغم من إمتلاء قلبه بحب محبوبه محمد (فهو لم يسلم من اتهام بعض الناس له بالكذب في دعوى المحبة

لسبب بخل عينيه بالدموع. فيقول لهم:١٨

يقولون: لا تكذب فخدك مجدب

فقلت: ومهجور الأراضي قوانظ

فتي مقلتي مذ هجر ساكن ربعها

موحشة قحلاء والقلب حافظ

يقول الشاعر لهؤلاء الذين يلحظونه بعيونهم ويراقبونه عن كثب، ويتهمونه بالكذب في محبة المختار المصطفى (بأنه كيف يدعي محبته والحال أن خده مجدب جاف لا يفيض دموعا؟ فيجيبهم معللاً بعدم التعجب من جدب الخد من الدموع؛ فإن الأراضي المهجورة من الأمطار تصير جافة يابسة. وهذا معنى جليل جرى في أسلوب فنان قائم على الوحي بالمعنى، وبثه في القلب بطريق التشبيه الضمني الخفي، في صورة برهان واستدلال. أليست صورة المشبه به "الأراضي المهجورة الأمطار" موحية كل الإيحاء بحال المشبه "الخدُّ" من الجدب والجفاف؟ فتلك حال مقلته الجدباء منذ هجران من كان يسكن ربعها فصارت موحشة قحلاء، بيد أن قلبه لمفعم بحبه وحافظ على العهد دائما. ثم تدبر تعليل الشاعر تأخره في تناول كأس المحبة بعد غيره في وادي المحبة حيث يقول:١٩

شهدتكم الله العليم بأن ذا ال

فتى راد بالمعنى هناك وبالحس

ونُوِّل كأس الحب بعد جميعهم

فشرب كبار القوم في آخر العس

صلاة وتسليم على ذا الذي حوى

فؤادي هواه وهو أوضح من شمس

قد علل الشاعر حاله في مناولة كأس المحبة بعد جميع المحبين في وادي المحبة بأن لا عجب في تأخره عن تناول الكأس ولا عيب في ذلك؛ لأن شرب كبار القوم وسادتهم يأتي في آخر المطاف فسيد القوم آخرهم شربا. فهو يريد أن يبرهن أن السبب في التأخر لم يكن لقلة القدر ولا لنقص في الدرجة، بل هو لسبب أن نوبة كبار المحبين في الشرب يكون في آخر العس بعد احتساء جميع الصغار والضعفاء، فحينئذ يفرغ الكأس للكبار فقط بلا منازع، وهو بذلك قد برهن بطريق التلميح على كونه من جملة كبار المحبين في وادي المحبة لا من ضعفائهم وصغارهم. ثم انظر في البيت الأخير حيث قال: "وهو أوضح من شمس" قد طوى التشبيه في داخل هذه العبارة؛ ولكنه لم يجر الكلام على شكل صياغة التشبيه المعروفة؛ كأن يقول: "وهو كالشمس في الوضوح والظهور"، وإنما أوهم وهو في صدد المقارنة بين الممدوح وبين الشمس بزيادة المعنى وارتفاعه درجة فوق درجة التشبيه العادي، وكأن هدف العبارة ليس بيانًا بأن الممدوح يشبه الشمس في شدة الوضوح والظهور؛ وإنما الغرض منه أن يخبرك عن فضل الممدوح على الشمس، أما عقد التشبيه فذلك أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مناقشة فيه.

الخاتمة

من خلال النماذج المقدمة والدراسة المتواضعة لأسلوب التشبيه وأغراضه التعبيرية في شعر الشاعر إبراهيم أحمد مقري زاريا، يمكن للقارئ أن يرى طبيعة هذه الظاهرة البلاغية عند الشاعر وكيف استطاع أن يستخدمها في إجلاء معانيه الكامنة في أعماق قلبه ليوصلها مجسمة مشاهدة إلى نفوس السامعين والقراء، ويبرزها إبرازا يجعلها متميزة ومؤثرة في النفوس مصحوبة بالحجة والبرهان، والمقالة اشتملت على الملخص والمقدمة والتعريف بالشاعر والتشبيه، وشرح بلاغته في تأدية المعاني الخيالية الكامنة في النفس في صور محسوسة ومشاهدة ثم المصادر والمراجع.

الهوامش

١ – عثمان موافي: من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، مؤسسة الثقافة الجامعية. مصر، ١٩٧٥. ص: ١٢٧.

٢ هيئة المراقبة للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية بالسعودية: البلاغة والنقد، ثالث ثانوي، ط٣، دار الأصفهاني للطباعة بجدة- السعودية. ١٩٨١م، ص: ١٠٤-١٠٥.

٣ ابن منظور: لسان العرب، المجلد الخامس، مادة: شبه، باب الشين. ٢٠٠٣م، ص:٢٢.

٤ قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ت: كمال مصطفى، ١٩٧٩م. ص:١٠٩.

٥ الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. ص: ١٢١.

٦ الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة. ص: ٢١٤.

٧ – قلى: عود يجعل في وسطه حبل ثم يدفن ويجعل للحبل كِفَّة فيها عيدان، فإذا وطئ الظبي عليها عضتْ على أطراف أكارعه. لسان العرب، جـ٧، ص: ٤٨٥. والعقارب: جمع عقرب: دويبة سامة من رتبة العقربيات، منتشرة في البلدان الحارة... لها في طرف ذنبها إبرة تلسع بها لسعًا مؤلمًا أو أحيانًا مميتًا. المنجد في اللغة: ص:٥١٩-٥٢٠.

٨ – انظر: المنجد في اللغة، ص: ٢٨١.

٩ – ديوان صدى الهيمان، القصيدة الخامسة: خام الجمال.

١٠ – سورة يوسف عليه السلام: ٣١.

١١ – ديوان: صدى الهيمان. ص:٧.

١٢ – "مواعيد عرقوب" قال أبو عبيدة: هو رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقال عرقوب: إذا أطلعي هذه النخلة فلك طلعها. فلما أطلعت أتاه للعدة فقال: دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهوا، فلما زهت قال: دعها حتى تصير رطبا، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرا، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها، لم يعط أخاه شيئا. فصار مثلا في الخلف.

١٣ – والبرق الخلب: الذي لا غيث فيه، كأنه خادع بومض حتى تطمع بمطره، ثم يخلفك. ويقال: برْقُ الخُلَّب، وبرْقُ خُلَّب، فيضافان؛ ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز وعده: إنما أنت كبرْق خُلَّبٍ. لسان العرب، جـ٣، مادة "خلب"، ص:١٦٨.

١٤ – ديوان: منبع الحب.القصيدة الرائية الثانية.

١٥ – الديوان نفسه والقصيدة نفسها.

١٦ – ديوان: منبع الحب. القصيدة الرائية الثانية.

١٧ – ديوان: رحيق المبين. ص:١٤.

١٨ – ديوان: رحيق المحبين. ص:٢٥.

١٩ – الديوان نفسه، صفحة :١٦.

المصادر والمراجع

القرآن العظـــيم

- القزويني، الخطيب جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت- لبنان، (بلا تاريخ).
- عثمان موافي: من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، مؤسسة الثقافة الجامعية بمصر، ١٩٧٥م).
- فتحي أحمد عامر (الدكتور): فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة، (١٩٧٥م).
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ت. كمال مصطفى، ط٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة، (١٩٧٩م).
- لويس معلوف اليسوعي (الأب): المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٦، دار المشرق، بيروت- لبنان، (١٩٨٢م).

- مقري، إبراهيم أحمد: ديوان رحيق المحبين، الطبعة الأولى، بدون ذكر مكان النشر، ٢٠٠٥م.
- ..... ديوان صدى الهيمان، الناشر غير مذكور، ١٤٢٧هـ.
- ..... ديوان منبع الحب، مخطوط.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (الإمام العلامة): لسان العرب، دار الحديث بالقاهرة، (٢٠٠٣م).
- الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة، دار الفكر، بيروت- لبنان، (٢٠٠٣م).